قصيدة مجهولة للسموأل

نشرت بعض المجلات والجرائد العربية منذ بضعة اشهر قصيدة نسبها الناشر الاول لها وهو الاستاذ مرجليوث الانكليزي الى السموأل الشهير ثم وجدت منها نسخة ثانية في الموصل اصح رواية من الاولى . ثم وجدت منها نسخة ثالثة اصح رواية من السابقتين وجدت في بغداد . وذلك بينا انا ابحث في كتبي على احد شعراء بغداد في القرن المنصرم ورد ذكره في مخطوط نفيس عندي فعثرت على قصيدة السموأل ولما انعمت النظر فيها وجدتها قليلة الضرائر الشعرية والاغلاط النحوية وألفيتها تختلف الرواية عن النسختين المذكورتين فجئت اتحف بها قراء المقتبس واضفاً لهم المخطوط مع بعض الانتقاد لهذه المنظومة .

وردت القصيدة في الصفحة ٢٧٤ من مخطوطنا وقد ترجمت بهذا العنوان . « هذه القصيدة للسموأل من بني قريظة لا للسموأل من بني غسان » . واليك الآن نصها مع الضبط المشكول بكل تدقيق وامانة :

الا ايها الفيف الذي عاب سادتي ... ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل
ألا اسمع لمخزٍ يترك القلب مولماً ... وينشب ناراً في الضلوع الدواخل
فأحصي مزايا سادتي بشواهد ... قد اختارهم رحمانهم للدلائل
قد اختارهم عقماً عواقر للورى ... ومن ثمّ ولاّهم سنامَ القبائل
من النار والقربان والمحن التي ... لها استسلموا حب العلا المتكامل
فهذا خليلٌ صير النارُ حوله ... رياحين جنات الغصون الذوابل
وهذا ذبيحٌ قد فداهُ بكبشهِ ... يراهُ بديهاً لا يثج الشاتل
وهذا رئيس مجتبيٌ ثمّ صفوهُ ... وسماهُ اسرائيلَ بكرَ الاوائل
ومن نسله السامي ابوالفضل يوسف ال ... ذي اشبع الاسباط قمح السنابل
وصار بمصر بعد فرعون امرهُ ... بتعبير احلام لحلّ المشاكل
ومن بعد احقاب نسوا ما اتى لهم ... من الخير والنصر العظيم الفواضل
ألسنا بني مصر المنكلة التي ... لنا ضربت مصرٌ بعشر مناكل
ألسنا بني البحر المفرّق والتي ... لنا غرّق الفرعون يومَ التجامل
واخرجهُ المبدي الى الشعب كي يرى ... اعاجيبه مع جوده المتواصل
وكيما يفوزوا بالغنيمة اهلها ... من الذهب الابريز فوق الحمائل
ألسنا بني القدس الذي نصبت لهم ... غمامٌ تقيهم في جميع المراحل

من الشمس والامطار كانت صيانة ... تجير نواديهم نزولَ الغوائل
ألسنا بني السلوى مع المن والذي ... لهم تجر الصوّان عذبُ المشاعل
على عدد الاسباط تجري عيونها ... فراتاً زلالاً طعمهُ غير حائل
وقد مكثوا في البرّ عمراً مجدداً ... بغديهم العالي بخير المآكل
فلم يبلَ ثوب من لباس عليهم ... ولم يحوجوا للنعل كلَّ المنازل
وارسل نوراً كالعمود امامهم ... ينير الدجى كالصبح غير مزايل
السنا بني الطور المقدّس والذي ... تدكدك للجبار يوم الزلازل
ومن هيبة الرحمان ذاك تذللاً ... فشرّفه الباري على كل نائل
وناجى عليه عبدهُ وكليمهُ ... فقدّسنا للرب يومَ التباهل اه

فمن قابل بين هذه الرواية والروايتين الأوليين يحكم ان هذه اصح من تينك . وان هذه نقلت عن اصل اصدق روايةً من النسختين اللتين أخذت عنهما الروايتان الافرنجية والموصلية . يظهرُ ذلك من مقابلة بعض الالفاظ مثلاً قد ورد في القصيدتين الاوليين هذا البيت :

فهذا خليلٌ صير الناس حوله ... رياحين جنات الغصون الذوابل

فهذا لا معنى لهُ وهو محرّف والاصح مافي نسختنا اي «صير النارُ حوله» وورد ايضاً قوله في النسختين : «بتعبير تدبير لحل المشاكل» والتدبير لا يعبر وانما تعبر الرؤى والاحلام ومنه ما انشده المبرد في الكامل لبعض الاعراب :

رأيت رؤيا ثم عبرتها ... وكنت للاحلام عبارا

وعليه فروايتنا اصح ايضاً في هذا البيت وقول النسختين :

من الشمس والامطار كانت صيانة ... تجير عساكرهم لهوف الغوائل

فهذا مكسور البيت فضلاً عن اضطراب معناه في قوله «لهوف الغوائل» والاصح ما جاء في روايتنا «تجيرُ (بالراء المهملة) نواديهم نزول الغوائل» لان الغوائل تنزل بالمرء وبهذا المبنى والمعنى ورد اغلب كلام العرب كما هو مشهور وجاء في النسختين :

وارسل نوراً كالعمود امامهم ... ينير الرجا كالصبح غير مزائل

فهذا البيت لا يخلو من المعنى . لكن من لا يرى ان هذا البيت مصحف الرواية وان الصحيح «ينير الدجى» بالدال المهملة لا بالراء كما يتضح للقاري ولا دنى تأمل

واما البيت الاوّل على رواية النسختين فلا يخلو من معنى بقوله : «الا ايها الصنف» لكن نوع التصحيف فيه بادٍ لكل ذي عينين والاصح : «ألا ايها الضيف» اما ناظم هذه القصيدة فلا نظن قط انها للسموأل بن عاديا، فاين هذا الشعر من قوله :

تسيرنا انا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل . . الخ

ففي هذا النظم من محكم المبنى ومتانة المعنى ما لا يرى له اثرٌ في هذه القصيدة ولعل سبب وهم الناس في نسبتها الى السموأل بن عادياء توافق في اسم ناظم آخر عرف باسم السموأل لان هذا الاسم يوافق شموئيل وشموئيل او شميل ورد لا لوف من اليهود في نسبتها الى واحد من بني قريظة امكان لان هؤلاء محقوا بعد الاسلام بقليل اما لانهم دانوا بالاسلام او لانهم هجروا وطنهم ولحقوا باخوانهم خارج بلاد العرب فلم يصل الينا من شعرهم الا النزر القليل وعلى كل فليس هذا من نظمهم او نظم بعضهم لان « تعبير النصرانية الحديث » ظاهر من خلال النظم يشف عن حداثة وضعه لان ورود كي وكيما في الشعر الجاهلي قليل ونادر وهاتان اللفظتان قد وردتا تباعًا في هذين البيتين :

واخرجه المبدي الى الشعب كي يرى اعاجيبه مع جوده المتواصل
وكيما يفوزوا بالغنيمة اهلها من الذهب الابريز فوق الحمائل

ثم انظر الى قوله :

الا اسمع لفخر يترك القلب مولعًا ويشب نارًا في الضلوع الدواخل

فهل من ضلوع تكون خوارج حتى تشب النار في الدواخل منها . فلا غروَ ان في هذا التعبير لغوا وتكلفًا لا يأتيهما واحد من اهل الجاهلية ولو اردنا ان نقبل الروايتين الاوليين فلا يمكننا الا ان نضرب بهذا النظم عرض الحائط اذ فيهما من الاغلاط الفظيعة ما لا يرتكبه اضعف طلبة المدارس في يومنا هذا فكيف يعزى الى ناظم بليغ كالسموأل ابن عادياء الغساني .

ومما يشهد ان بدًا غريبة تصرفت بهذه الابيات البيت الاخير الذي ورد في القصيدة الموصلية ولم يرد في الرواية الافرنجية ولا في الرواية البغدادية وهو هذا :

وفي آخر الازمان جاء مسيحنا فاهدى بني الدنيا سلام التكامل

فما معنى « سلام التكامل » ثم اننا اذا اقررنا بنسبة هذه الابيات الى السموأل المشهور وهو يهودي فخ كما تشهد عليه جميع كتب العرب فلا يمكن ان يقول مثل هذا الكلام وكذلك اذا نسبناه الى يهودي آخر . فلا جرم ان ناظم هذا البيت الاخير مسيحي النحلة (١) لاقراره بمجيء المسيح (٢) لانه زاد هذا البيت بدون ان ينظر الى تسلسل التشابيه والرموز فجاء به تهجمًا بدون ادنى مراعاة لما ورد قبله (٣) لو قيل لنا ان السموأل بن عادياء كان من غسان وغسان كانت كلها نصارى قلنا ان دعوى ان السموأل كان مسيحيًا فجميع مؤرخي العرب وكتبتهم وادباؤهم فضلاً عن ان غسان لم تكن كلها على النصرانية مخالفون لها فقد

كان فيهم من يعبد الاصنام ومن اوثانهم مناة . قال ياقوت في معجمه : هذا اسم صنم في جهة البحر مما يلي قديداً بالمشلل على سبعة اميال من المدينة . وكانت الازد وغسان يهلون له ويحجون اليه وكان اول من نصبه عمرو بن لحي الخزاعي ... اه . ومنهم من كان على دين دهماء العرب كسطيح بن ذئب الكاهن المشهور فلم يكن نصرانياً البتة . وقد جاء في تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٧ — (وكانت تلبية غسان عند وقوفها امام صنمها لبيك رب غسان راجلها والفرسان) اه وقال في ص ٢٩٨ (وتهوّد قوم من غسان) . وقال في ص ٢٩٩ وتنصر ... غسان وهذا كلام يدل على ان النصرانية واليهودية كانتا في غسان لا النصرانية وحدها وقال الطبري في تاريخه ١ : ١٧٦ (وكان الحارث بن ابي شمر الغساني نذر سيفين كانا لهُ لبيت الصنم يقال لاحدهما رسوب وللآخر مخزم) اه فهذا نص صريح على انه كان وثنياً مشركاً وكل من وقف على النسختين السابقتين وعلى نسختنا يعرف بنفسه ما في نسبة هذه القصيدة الى السموأل من الشطط . اما اسم مخطوطنا فهو « نيل السعود في ترجمة الوزير داود » كتب سنة ١٢٣٢ وعدد صفحاته المكتوبة والبيضاء ٣١٤ وطول الصفحة ٢١ سنتمتراً في عرض ١٣ وهو مصحف بجلد احمر ومؤطر بخطين احمرين مزدوجين وفي الوسط خطان متآزيان على بعد سنتمتر واحد والقرطاس المخطوط من النوع المسمى بالترمذي المشهور عند العامة بالترمة . وتبتدىء الصفحة الثالثة بقصيدة لناظمها الملا جواد البصير يمدح بها والي بغداد والبصرة وشهرزور داود باشا ثم تليها عدة قصائد في مديحه ايضاً بخط حسن وهي لعدة شعراء عراقيين مجهولين اليوم ولا نعرفهم الاّ مما بقي مدوّناً من قريضهم في هذه المجموعة وهذا وحده كاف لان يعرفك منزلة هذا الديوان النفيس اذ بواسطته نعرف عدة شعراء عراقيين من بصريين وحلبيين وبغداديين وغيرهم .

وقد بلغت عدة القصائد في مديح الوزير ستاً وسبعين ثم يتلوها قصائد أُخرى مختارة من نظم الاقدمين والمولدين ومعاصري الكاتب ثم يتلو ذلك منتخبات من كتب الحديث والادب والاقوال المأثورة المشهورة مختلفة الموضوعات والاغراض وكلها من انيق النثر والنظم ومما يزري ضياء حسنه بهاء النجم واغلب ما جاء في هذا الديوان لم اعثر عليه في الكتب المطبوعة . جمعه مؤلفه من عدة كتب مخطوطة عزيزة المنال . ومما فيه ابواب في الاحاديات والثنائيات والثلاثيات ثم ديوان مرتب القوافي على حروف المعجم لعدة شعراء وكلها قصائد غراء آخر قصيدة منها دالية لابن حجة . ومن غريب ما في هذا الديوان بيت شعر لبديع الزمان الهمذاني وهو يقرأ من احد عشر وجهاً . وهو من اعجب ما جاء في هذا الصدر ونحن نورده هنا لما فيه من الغرابة . ودونك اياه بنصه ومواقع الحبر الاحمر منه .

(كفى) نا بأنا في زمان مذمم — يذاد عن الحق المبين ويدفع
(حزنًا) أنا نزور معاشرًا — تنهمل غيا بينهم وتضيع
(اني) اقول مقالة — يجتمعي منها اللئيم ويفزع
(بدار) اراذل — قلوبهم غيظًا علي تقطع
(مذلة) — وليس بها حرّ من الناس ينفع
(ارى) كل من فيها عن الحق يدفع
(الذل) فيها دائمًا ليس يقطع
(من) ارجائها يتنوّع
(أ) كنافها يتسرع
(ملاكها) ينفزع
(يتوقع)

وفي الوجه ٣٩٧ من هذا الديوان صور لبعض الرسائل التي دارت بين خان الحويزة ورستم اغا بشأن معركة البصرة سنة ١١٥٦ وهي من الآثار التاريخية التي يحرص عليها الباحث كل الحرص لانها لا توجد في غير هذا الكتاب النفيس وقع في اربع قوائم ونيف مشتبكة السطور محبوكة الحروف وفي الصفحة ٣١٣ قصيدة للسيد عبد الغفار الموصلي مكتوبة بقلم على ورقة طيارة فاخذها جامع الديوان وقطعها قطعًا محكمًا يناسب شكل الصفحة محافظة على خط الناظم وهو من مشاهير شعراء القرن الماضي . وهذه القصيدة هي الدرة الثمينة لانها هي وحدها محفوظة بخطه فلا يحفظ من خطه غيرها فحبذا يختم الكتاب وليس في صفحة من صفحاته ذكر اسم جامعه .

بغداد